الخطابة
والنهج

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف
الطبــعة الأولــى
١٤١٢ هـ ـ ١٩٩٢ م

ص. ب: ١١٣/٦٥١٢ ـ هاتف : ٣٥٠٠٣٧
بيــروت ـ لبنــان

الفصل الرابع: خَطَابة الرّسول الكريم ٦٥
القسم الأول: مدخل إلى خَطَابة الرّسول ٦٥
القسم الثاني: التّشْريح الخَطَابي ٦٧
القسم الثالث: مشروع الحُكم ـ البيان ٧٠
القسم الرابع: خطبة الوَدَاع ـ الوصيّة ٧٣
الفصل الخامس: خَطَابة الرّاشدين الثّلاثة ٨١
القسم الأول: خطابة أبي بكر الصّدّيق ٨١
أولاً ـ بيان الحُكم ٨٢
ثانياً ـ الخَطَابة الدّينيّة ٨٤
ثالثاً ـ الوصيّة الأخيرة ٨٧
القسم الثاني: خَطابة عُمَر ٨٩
أولاً ـ بيان الخِلافة ـ الخُطبة الإبْتِهَالِيّة ٩٠
ثانياً ـ وصيّة الحكيم المُجَرِّب ٩٢
القسم الثالث: خَطَابة عُثمان بن عفان ٩٥
أولاً ـ خُطْبة البَيْعَة ٩٦
ثانياً ـ خُطْبَة المَوْت ٩٧
الفصل السّادس: خطابة الخليفة الرّابع ١٠١
القسم الأول: مُقَدّمة في القَفْز الزّمني ١٠٤
القسم الثاني: البيان الخِلافي ١٠٦
القسم الثالث: الخَطَابة الدّينية ١٠٨
القسم الرابع: الخَطابة العسكريّة ١١٢
الخاتمة: ١٢٧
المَصَادر والمَرَاجع ١٢٩
الفهارس العامة ١٣٣

عاشراً: فهرس الموضوعات

المقدمة ٥
الفصل الأول: الأُصول والمُقَوِّمات ١٣
القسم الأول: الخَطَابة والخطيب ١٤
القسم الثاني: بناء الخطبة ١٨
القسم الثالث: أقسام الخطابة وأنواعها ٢٦
الفصل الثاني: الخطابة بين الجاهلية والإسلام ٣٣
القسم الأول: معالم الخَطَابة في الجاهلية ٣٣
القسم الثاني: أنواع الخَطَابة في الجاهلية ٣٧
أولاً ـ الخَطابة الإجتماعيّة ـ السياسيّة ٣٨
ثانياً ـ الخطابة التّأمليّة ـ الوَعْظيّة ٤٥
ثالثاً ـ الخَطابة الحربيّة ٤٧
الفصل الثّالث: خَطَابة صدر الإسلام ٥١
القسم الأول: مُقَاربة بين الخطابتين ٥١
القسم الثاني: الإسلام نَمُوذَجْ مُقَرَّر ٥٨
القسم الثالث: أهميّة الخطابة في صدر الإسلام ٦٠

الجامعة اللبنانية لما أسداه لي من خدمات جَلّى دون مِنَّةٍ أو تأنّف ولمـا تمتّع بـه من فضلٍ ومصداقيّة وأخلاق كريمة.

فايز ترحيني

عبا في ١٥ تموز ١٩٩١

نَهْج البَلاغة[1] لابن أبي الحَدِيْد، خُصوصاً عندما يُشير إلى تأثر ابن أبي طالب بآي القُرآن الكريم. و «الإشعاع القُرآني في الشّعر العَربي[2] الذي أَخَذْتُ عنه بعضَ الإقتباسات من القرآن الكريم. ولكن تلك الكُتُبْ لم تَنْظر إلى موضوع التأثر المُعجمي «كقضية» ولم تَقْتَرح مُعجمية القرآن أو غيرها «فَيْصَلاً» يُقَرّب الأدباء ـ لغوياً ـ أو يُبْعدهم عن الإسلام.

ويُمَثّل القسم الثاني: القرآن الكريم، والمُعجم المُفَهْرس لألفاظ القرآن الكريم[3] وَنَهْج البَلاَغة[4] وشرحه لابن أبي الحديد، وبَعْض المُعْجَمات كتَاج العَروس[5] للزَّبِيْدي، وغير ذلك من أُمّات الكُتُب التي كان اعتمادي عليها كُلّياً لأنّها تُشَكِّلُ المادّة التي لا يُمكن القيام بالعمل أو إتْمامه بِدُونها، ولكن إفادتي منها ـ كما لا يخفى ـ لم تكن إقتباساً أو نقلاً بل انتقاء لِمَا يَخْدُم منهجية الدراسة.

وأمّا القسم الثّالث فهو ما تَبَقّى من مَصادر الدّراسة ومَراجعها، واقتصرت إفادتي منها على إيضاحاتٍ أو شرحٍ أو الإستئناس بفكرةٍ أو رأي أو غير ذلك. لذلك أظُن أنّ دراستي هذه تكادُ تكون الأولى من نَوْعها لأنها فَصَّلَتْ القَول إلى حَدٍّ ما وَفَتَحَت كُوَّةً لِدراسة الأدب العربي على ضَوء منهجٍ جديد.

وأخيراً أشكر الدكتور ساسين عساف عميد كلية الآداب والعلوم الإنسانية في

---

(١) ابن أبي طالب (علي) «شرح نَهج البَلاغة» جمع الشّريف الرّضي، شرح ابن أبي الحَديد، دار إحياء الكُتب العربية، البابي الحلبي وشركاه، القاهرة ١٩٦٥.

(٢) الدّارجي (محمد عباس)، «الإشعاع القرآني في الشّعر العربي»، عالم الكتب ومَكتبة النّهضة العربية بيروت، ١٩٨٧.

(٣) عبد الباقي (فؤاد)، «المُعجم المُفهرس لألفاظ القرآن الكريم»، دار إحياء التُّراث العربي، بيروت لا تاريخ.

(٤) ابن أبي طالب (علي)، «نهج البلاغة» جمع الشّريف الرّضي» ضبط نصّه صُبحي الصّالح، دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة، بيروت، ١٩٨٣.

(٥) الزَّبيدي (مُرتضى)، «تاج العروس» التراث العربي، الكويت، ١٩٦٥ وما بعدها.

الرّضي في «نَهْج البَلاَغة» كان لا بُدّ من الإختيار، فاخترت ثلاثاً من خُطبه، مَهَّدْتُ لها بمقدمة بيَّنت فيها: أنّ خطابته كانت مُتقدِّمة على روح العصر، فهي تُجاري النّثر الشّعري، أو تُماثل الشّعر المَنْثور، فأول خطبة دَرَسْتُها للإمام هي ما يُـظَنُّ أنّها بَيَـانه الخلافي أو مشروعه للحكم، حيث يجعل القرآن الكريم المُنْطَلق والأساس لأفكاره جميعـاً، ثم يمضي مُعَـدّداً مُعتقـدات الإسـلام وتعــاليمـه التي يجب على المسلم اتّباعها، مُسْتـقيـاً مُعجميّة القـرآن تَلْميحاً أو تَصْـرِيحاً. فمـا من لَفْظةٍ أو صُـورة إلاّ وهي مأخوذة من القرآن أو الحَديث.

ثم توقّفت عند مَقْطَعٍ لابن أبي طالب تنـاول فيه معـرفة الله، فـإذا الخـطيب عَالمٌ فَيلسوفٌ، مُتفهمٌ للقُرآن، وواعٍ بعمق لمعجميّته، ومُتَمَثِّـلٌ بِجَدّيـة لقيم الدّين الإسلامي. فضلاً عن أنّه بَلَغَ من الكَمَال «المعرفي» حَدّاً لم يُجَارِه فيه أحدٌ من غير الملهمين، ودرجةً من الكمال الإيماني لا تُزَاحم.

وأمّا الخُطبة الثّالثة فهي «الجِهَاد» كـأنمُوذجٍ للخـطابة العَسكـرية، وفيهـا يأتي الإمام في قِمّة الخُطباء والمُتكلمين، استَنْفَدَ الوَسائل السياسيّة والعسكـريّة والنّفسيّـة والـدّينية جميعـاً، في سبيل الإستمـالة والتـأثير والإقنـاع، مُسْتمـدّاً مُعْجميّته وصـوره وبَلاغته من القرآن الكريم.

ويَبْقى القول أنّ الغاية الأساسيـة لهذه الـدّراسة تَتَمَحْـوَرُ حول قَضيـة رَئِيْسَة: وهي دراسـة أدب صدر الإسـلام على ضَوء مُعجميّـة القرآن. وهـذا يَعني أنّهـا قـد تُشَكِّلُ «لبنة تأسيسيّة» لإعادة دِراسة الأدب العَربي برِمّته من مُنطلقات جَديدة. وأقول لبنة تأسيسيـة لأنّها ـ كمـا أظن ـ المُنطلق والبـداية لعمـل تأسيسي سـواء وَجَدَتْ بين الـدّارسين من يُتابعهـا أو يُعارضهـا، ففي الحالتين غنىً فكـري نحن بأمسّ الحـاجة إليه.

وهذا الكلام يقود حَتْماً إلى الإشارة إلى مَصَادر الدّراسة ومَراجعها التي تُقْسم إلى ثلاثة أقسـام. يمثّل القسم الأول الكُتُب التي أوحَتْ لي بفكـرة الدّراسـة كشرح

المسلمين، وكانت عند الرسول خطبة الوداع أو خطبة الغَدَيْر.

ودرسْتُ في الفصل الخامس خطابة الرّاشدين الثلاثة: أبي بكرٍ وعُمَرَ وعُثمان. وأفردت الفصل السّادس لخطابة علي بن أبي طالب. وأبادر إلى القول إنّني حَصَرْتُ خطابة صدر الإسلام في الرّسول والخلفاء الراشدين لمواقِعهم السِّياسيّة والدّينية، ولأنهم أمسكوا بقرار الإسلام، كلٌّ إبَّان خِلافته. وأُشير إلى أنّني حَذَفْتُ تعابيرَ التّكريم ومُفْردات دَرَجَ المُسلمون على اتّباعها ـ بهذا الخليفة أو ذَاك ـ «كَرضِي الله عنه، وكَرّم الله وَجْهه، وعليه السلام» ـ لِيَقيني أنّ المُسلمين لم يتّفقوا إزاءَها، فضلاً عن أنَّ منهجية الدّراسة لا تَسْمحُ إلاّ بإثبات الألقاب العِلْمية، وتلك التّعابير تَنْدَرجُ في بَابَ التَّوسُّل والدُّعاء والتَّمني والرَّجاء وما شابه.

توقّفت في الفصل الخامس مع خطابة أبي بكر الصّديق، فاخْترت ثلاثاً من خُطَبه: بيان الحْكم، وخُطبة دينيّة، ووصيّته الأخيرة. وهي جميعاً امتداد لخطابة الرّسول أسلوباً ومَضموناً، وتأثُّراً بمُعْجمية القرآن، وَتَمَثُّلاً لقيم الدّين الإسلامي.

ثم توقّفت مع خطابة عُمَر بن الخَطّاب أمام خُطْبتين: الأولى بيانُه الخِلافي أو مَشْروعُه للحكم، والثانية وصيَّته الأخيرة. ولقد غَلَبَ على الخُطبتين الطَّابع الإبْتِهَالي والتَّضَرُّع إلى الله، والحكمة والواقعيَّة والتأثر بمُعْجَميَّة القرآن وتعاليم الإسلام والثّورة على تقاليد الجاهلية ومآثرها.

وتوقّفت مع خطابة عُثْمان بن عَفَان عند أوّل خُطبة ألقاها بُعَيْدَ مُبايعته بالخلافة، وهي تُمَثّلُ مشروعَه للحكم أو بيانَه الخلافي، وعند آخر خُطبة ألقاها قُبَيْل مَقْتَلِه وأسميتها خُطْبة المَوْت. ويتّضح من دراسة هاتين الخُطبتين أنّ عثمان لم يَكُنْ خطيباً ذا فِكْرٍ مُبْدعٍ، أو حَكيماً مُجَرِّباً قادراً على الإستمالة والتّأثير والإقناع.

أمّا الفصل السادس فخصّصته للوقوف عند نِتَاج علي بن أبي طالب الأدبي، فخُطَبُه بلغت المائتين والأربعين، ورسائِله ووصاياه قاربت الثّمَانين، ومواعظه وحكمه أَوْفَتْ على أربعمائة وثَمانين. وأمامَ هذا النِّتاج الضّخم الذي جمعه الشّريف

التي كانت سَائِدةً في الجاهلية وأخذت تَضْمَحِلُّ تدريجاً، كخطابة المُنافرات والأسْجَاع. ثم عرضتُ للخطابة التي تطوّرت في صدر الإسلام كالخطابة التأملية ـ الوعظية فأضحت دينيّة خالصةً، وكخطابة القتال التي أصبحت جِهاداً في سبيل الله ودِفَاعاً عن الإسلام. كما تحدّثت عن بعض الأنواع التي لم تَكُنْ موجودةً في الجاهلية واستُحْدِثَت كخطابة الجُمَع والعيدَيْن التي أضحى لها أصولٌ وأنواعٌ مُقَرَّرَة لَمّا تزل تُتَابَعُ إلى اليوم.

وتوقّفت في هذا الفصل أيضاً عند أهميّة الخطابة في صدر الإسلام، فأضحت مُقَدَّمة على الشّعر كَمّاً وَكَيْفاً، وشملت شُؤون الحياة الإسلامية جميعاً، وأسهمت في نَشْر الدّين الحَنيف، لأنّها أقدر من الشّعر على شَرْح الحقائق ومناقشتها بالحجّة والبُرهان والمَنْطق، دون أنْ يَحُدَّ من حُرّيتها قَيْدُ وَزْنٍ أو قافيةٍ أو تخوفٌ من نَصّ قُرآني يُطَاولُ تَحْرِيْماً الخُطباء أو بعضَهم حتى يصُحَّ القولُ أنّ ذلك العصر كان عصر الخطابة الذهبي.

أمّا الفصل الرابع فخصّصته لدراسة خُطَبْ الرّسول، والرّسول الكريم لا أَحَد يُقَارَن به فصاحةً وبلاغةً، فكلامُه ـ عند المسلمين ـ دُون كلام الخَالق وفوقَ كلام المَخْلُوق. لكنّ خطابة الرّسولِ ضَاعت أو ضاعَ مُعظمها لِغياب التّدوين ولاشْتغال المُسلمين بجمع القُرآن والحديث الذي ارْتَبَطَ ارتباطاً وثيقاً بأحكام الإسلام. وبالرّغم من ذلك فإنّ الرّسول اسْتنَّ في خطابته سُنَّةً لَمّا تَزَلْ تُتَابع إلى اليوم، كالإستهلال بالصّلاة والإستشهاد، وُصولاً إلى تَشْريع بعض الأحكام والمواعظ، مُستخدماً في ذلك جميعاً أساليب التّرغيب والتّرهيب، وغايته دائماً الإستمالة والتّأثير والإقناع.

وهنا لا بُدَّ من الإشارة إلى أنّني لم أدرس خطابة الرّسول وخلفائه الرّاشدين دِرَاسة شُموليَّة، بل توقّفت مَليّاً أمام أوّل خُطبة تُمَثِّلُ بيانَ الحُكم، لأنها تشرحُ بعض المبادىء الأساسيّة التي يقوم عليها الحُكم، وصولاً إلى آخر وصيّة تركها بين

الأول إلى أنَّ الخطَابة في الجاهلية كانت معروفةً كالشّعر تقريباً، لكنّها بقيت مُخصّصة لخاصَّة العرب، واقتصر أمرها على عِلْيَةِ القَوْم ورُؤسائهم وأمرائهم وقادتهم، إذْ لا يُعْقَل أنْ يقفَ عبدٌ أو أمَةٌ لِيَخْطُبَ في جُمْهُورٍ من مُسْتَمعي العرب في حين شمل الشعر الخَاصّة والعامّة فَتَفَوّق كَمّاً وكيفاً، ولكن لم يُحْفَظْ من المنثور عُشْرُه، ولا ضَاع من الموزون عُشْرُه كما جاء في صُبْح الأعْشَى للقَلْقَشَنْدي[1].

ثم توقّفت في القسم الثاني عند أنواع الخطابة في الجاهلية، فقسّمتها إلى خطابة: اجتماعيّة ـ سياسيّة، وخطابة تـأملية ـ وَعْظِيّة ـ وخطابة حربيّة. والمقصود بالنّوع الأول كل ما يتّصل بأحوال النّاس والمُجتمع ويُساعد على تَصَوُّرِ نَمَط حياتهم وواقعهم كخُطَب المُنَافَرة وإصلاح ذات البَيْن التي تَتَطَلَّبُ حَكَماً أو قَيْلاً يحكُم بين المُتنافرين أو المُتخاصمين. كما يشملُ النّوع الأول خطب المناسبات، وهي التي تَفْرضها ظروفٌ اجتماعية مُعيَّنة، كمناسبات الزّواجِ أو الموت، فأثبتُّ نماذجَ من هذه وتلك، مُستقاة من خطابة الجاهلية.

والمقصود بالنّوع الثاني خطب الأسْجَاع، كخُطب قِسّ بن سَاعِدة الأيادي، التي تَنِمُّ عن فكرٍ تأمُّلي وروحي عميق، وسجع الكهَّان الذي يَهدفُ إلى تَخْدير العقول وَشلِّ التّفكير وُصولاً إلى الأذعان المُطلق لِمَا يُقَال.

أمّا النّوع الثالث فإنّه يشمل حيّزاً من خطابة الجاهلية، ولا غَرْوَ في ذلك، فالعربُ كانوا قوماً غزاة، يَغْزُون ويُغْزَوْنَ لأتْفَهِ الأسباب، ويُثَارُون لعاداتٍ وتقاليدَ اعتبروها قِيَماً. وهذا الواقع فرضَ عليهم الإستعدادَ الدّائم للحرب، والتّحريض عليها دِفاعاً وهُجوماً، ونَتِيجة لذلك كَثُرَت خطابتهم في هذا المجال.

أمّاالفصل الثالث: «خطابة صَدْر الإسلام» فعرضْتُ فيه بعض أنواع الخطابة

---

(١) القَلْقَشَنْدي (أبو العباس، أحمد بن علي)، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩١٣ ـ ١٩١٩ م، ١، ص ٣٧.

والإقتصاد والتاريخ والجغرافيا، وربما كل ما لـه علاقـة بالأنـظمة الـوَضْعية. ولست أدري ما هي الأسس التي سينفلق منها النظام العالمي الجديد. ولكني أدرك بحدس يقرب أنْ يصبح يقيناً إنَّنا فعلاً بحاجة لوجودٍ جديـد، يشملُ الخلقَ جميعـاً: الشجر والبشر. الوُجود الجديدُ بحاجة إلى «كروم لها جذُور السنـديان وَرَفـاهُ في البَيْلسان» كمـا يقول خليـل حاوي. وبحـاجةٍ إلى إنسـان جديـد يختلف عنا لا بـالشكـل بـل بالجوهر، إلى مخلوقٍ يرفض ما علق بالـورقِ العتيق والزّمن العتيق والإنسـان العتيق من أوهام وترهات.

نحن بحاجة إلى الرّجوع إلى «العِبَارة البِكْر» و«البـدوية السمـراء» التي تنطق بالأصالة لا التقليد، وتعبُّ من النبع الصافي وترفض الرشف من الثَّمد الخادع.

نحنُ مـطالبـون اليـوم بـاستشـراف المستقبـل، مـطالبـون ـ أديبـاً وربمـا أكثر ـ بتشكيل فكرٍ جديد لإنسان جديد. مطالبون باقتراح منهجيـات وروىً تُعيد إلى الإنسان أصالته وعبارته البكر وجرأته، ومن هذا المنطلق جاءت هذه الدراسة.

اتـطلع في هذه الـدراسة إلى الخـطابة في صـدر الإسلام من زاويـة رؤيـويـة جديدة، تتمثل في اقتراح القرآن الكريم بمعجميته وألفاظه وتعابيـره وقيمه «فَيْصَـلاً» يميّز بين الخطبـاء. ولكي أحقق ما أصبـو إليه كـان لا بُدَّ لي من تقسيم دراستي إلى مقدمة وستة فصول وخاتمة وثبت للمصادر والمراجع وآخر للفهارس العامة. تحدثت في الفصـل الأول عن الخـطابـة تَعْـريفـاً وأهميّـة وغـايـةً ، والخـطيبُ بسمـاتِـه الدّاخلية وصفاته الخارجية. كمـا تحدّثت فيـه عن بناء الخـطبة في مقـدمة وعـرض وخاتمة، مُستشهداً على كلٍ منها بنماذج من خطابة صدر الإسلام. ثم تَـطَرَّقتُ إلى أنواع الخُطب دينيةٍ وسياسيـةٍ وعسكريـة، ومثَّلْتُ على كلٍ منهـا بعيِّنَات من خَـطَابة صـدر الإسلام أيضـاً، عِلْماً أنَّ أنـواعَ الخَطابـة مُتداخِلَةٌ تـداخُلاً يكـادُ يصعبُ معه الفصل الدَّقيقُ بينها، لكنّ الغاية فيها جميعاً الإستمالة والتّأثير والإقناع.

وخصّصت الفصل الثاني للخطابة بين الجاهلية والإسـلام فأشـرت في القسم

المقدّمة

لم أدعُ يوماً إلى التّقليد القاتل المُميت أو المحاكاة الجافة، ففيهما تَقوقعٌ واضمحلالٌ فاندثار. ولم أدعُ أيضاً إلى تحطيم الأسوار والقفز في المجهول رغبة في التّجديد دون تصوّر لبناء جديد، لأنّ التّحطيم والقفز فوق المُسلمات هو أيضاً فناءٌ وزوال، إذا لم يُسبقا بأشرعة فكرية وشاقول بناء تُشَكّل العالم أو تخلقه من جديد.

كلُّ شيء في الوجود يتجدّد، الكائنات جميعاً تتجدّد، حتى الجماد يتخلّق بهيئاتٍ جديدة، وتتشكّل منها أشكال جديدة، والسَّبَقَةُ يجب أنْ تُطاولَ الإنسان.

مسكينٌ الإنسان، حَمَّل نفسَه ـ ربما ـ أكثر مما يستطيع احتماله، ولكنها الجُرأة في التّجربة، والرّغبة في الخلود، قال تعالى: ﴿**إنّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ على السّمواتِ والأرضِ والجبالِ فأَبَيْنَ أنْ يَحْمِلْنَهَا وأشْفَقْنَ منها وَحَمَلَهَا الإنسانُ إنَّه كانَ ظَلُوماً جَهُولاً**﴾. فجميع مَنْ وما في الكون أبى حمل الأمانة وأشفق على نفسه فرقاً منها، وظلم الإنسانُ نفسَه جَهَالة بشأنها وعظمها وقَدْرها. لكنه منذ أنْ خَلقه اللَّهُ في أحسنِ تكوين، شرع يُسَخِّر موجودات الطبيعة لإرادته، واللَّهِ وحده يعلم إلى أي زمن سيرتضي خروج حَرَكيّة الكون وأشباهها على إرادته إنه كان ظَلوماً جَهُولاً.

تتردّد في العالم اليوم أصوات تنادي بنظام عالمي جديد، يُطاول السياسة

الإهـداء

إلى الزين أُحبُّهم

فايز

الدكتور فايز ترحيني

الخطابة والنهج

النخيل
للطباعة والنشر والتوزيع

أولاً: فهرس الآيات القُرآنية ١٣٠
ثانياً: فهرس الأحاديث النّبويّة ١٣٢
ثالثاً: فهرس الخُطب والمَقَاطع الخطابية ١٣٣
رابعاً: فهرس الأشعار ١٣٩
خامساً: فهرس الأشهر القَمَريّة ١٤٠
سادساً: فهرس المُدن والأماكن ١٤١
سابعاً: فهرس القَبائل والأمم ١٤٢
ثامناً: فهرس الأعلام ١٤٣
تاسعاً: بطاقة المؤلف ١٤٩
عاشراً: فهرس الموضوعات ١٥٨